

## عن أي حادثة خاصة يتحدث بول ريكور؟

2015-11-25 د. زهير الخويلدي

"لقد أخذت الحادثة تقترب من تعريف نفسها عن طريق تعارضها مع نفسها عينها".

لقد اتفق غالبية الشُّراح على منح بول ريكور لقب "الفيلسوف المسيحي" وهي تسمية كثيرا ما كان يرفضها في محاوراته ويعتذر لكل من يطلقها على فلسفته وذلك لكونه يعتبر نفسه من طينة المفكرين الذين لا يعيرون أي اهتمام وثوقي في قراءاته الدينية بل يحاول قدر الإمكان التمييز بين سجل التفكير التأملي ومجال الإيمان الشخصي ويعرف تفكيره بوصفه فلسفة دون مطلق بل نراه يعول بشدة على هذا التمييز الصارم قصد التخلص من النزعة الألوهية واحترام مفاهيم البنية والاختلاف والغيرية والعلمنة.

لقد وقع اتهام ريكور من قبل بعض المتابعين مثل (Wirework Annette و Rochlitz Rainer و Badiou Alain) بأنه يثبت وجهة النظر المسيحية للذات التاريخية ضد وجهة النظر الفلسفية التاريخية التي تنحدر من أصول يهودية وخاصة في مسألة سياسة الذاكرة العادلة. صحيح أن الفلسفة الريكورية هي مجال الحجاج والدقة ولكنها لا تدعي بلورة الحقيقة المطلقة وصحيح أنها عادت في بعض الأحيان إلى مشاكل الإثم والغفران والخطيئة الأصلية والعطوية والتناهي وهي مفاهيم مشتقة من الفضاء الديني، إلا أن ذلك لم يكن مراده عقلنة اللاهوت وبناء تأويلية لاهوتية بقدر ما يتعلق الأمر بالكشف عن صعوبات وإمكانات الصفح وتهئية سياقات الغفران وتحديد الاستراتيجيات من أجل تحقيق اندماج الذاكرة في محيطها الثقافي والتعامل معها كمطية لبلوغ وضعية إيتيقية متصالحة مع نفسها والتفاعل مع قيم الإيثار والمسؤولية والعيش المشترك.

على هذا النحو يمكن القول أن الفلسفة الريكورية طورت النقاش حول الذاكرة والنسيان والصفح منذ قيامها بالجمع بين المسائل الفنونولوجية والتحليل النفسي وبين الدراسات التاريخية والمقاربات الاستيمولوجية وفكرت في الإيتيقا بجدلنتها مع الأنطولوجيا ضمن منهاج براغماتي تداولي. غير أنها عارضت بين ذاكرة الأحياء والتاريخ المكتوب وطرحت إشكالية تمثيل الماضي

وسعت إلى وضع مكان التمشي الوضعاني الحدثاني سياسة الذاكرة العادلة عبر لحظات ثلاثة هي فنومينولوجيا الذاكرة وابستيمولوجيا العلوم التاريخية وهرمينوطيقا الوضع التاريخي.

حري بنا أن نبين في هذا المقام أن الذاكرة العادلة ليست تلك القادرة على إحياء الذكريات وممارسة فن التذكر بجدارة وأصالة ولا تلك القادرة على النسيان بالمعنى السلبي بل هي الذاكرة القادرة على الصفح والنسيان بالمعنى الايجابي الذي يؤدي الى التطهر والعلاج والتصالح مع الذات. وآيتنا على ذلك أن الصفح وحده القادر على نحت مفهوم إسكاتولوجيا الذاكرة الذي يستطيع إعادة تأويل أحداث التاريخ الماضية واستكمال الآمال والرغبات وبلوغ ذاكرة سردية سعيدة ومرتاحة وذلك بالعثور على الحاضر والانتباه إلى الراهن والاحتراس من المدهم والمباغت والطارء.

كما يمكن القول بأن الأطروحة التي دافع عليها بول ريكور في هذا المقام تعطي الأولوية الأنطولوجية والأنثربولوجية للذاكرة على حساب جميع الأبنية التاريخية وتعيد الاعتبار إلى للذاكرة الحية ضد تنسب المؤرخين وزعمهم التقيّد بالموضوعية. كما يثني ريكور بطريقة عقلانية وتحليلية على الذاكرة العادلة والعلاقة الذاتية والحية مع الماضي ويتسلح بمجموعة من المناهج والمقاربات الابستيمولوجية بغية تفادي الفهم المسبق والأحكام المسبقة التي يمكن أن تقع فيها تجربة الذاكرة الحية ويحاول استثمار هذه المعرفة في استنتاج القطب الإيتيقي والسياسي.

كما سمحت تحليلات ريكور حول الظواهر الذاكرية بالكشف عن تأثيرات الايديولوجيا على النظرة التي يشكلها الناس حول أنفسهم ورؤيتهم للعلاقات التي تجمع بينهم وللعالم الذي يعيشون فيه ووقفت وراء الطرق التي يختاروا بها معتقداتهم الجماعية بكيفية تمنحهم الحياة والديمومة. لقد تظن ريكور إلى أهمية الذاكرة في تكوين الهوية وفي تحديد العلاقة المتداخلة بين الهوية الجماعية والهوية الشخصية والنظر إلى الهويات الفردية على أنها تنتمي الى هوية جماعية ولكنها قادرة على التحرر من أطرها الضيقة وأنماطها الثقافية وبناء هويتها السردية المنفتحة.

غني عن البيان أن أهمية مفهوم الهوية السردية عند ريكور تكمن في سماحه بالتقاء الزمان والسرد وبين الشعرية والوجود وكذلك بتقاطع التاريخ والذاكرة وانبثاق زمن ثالث هو الزمن المروي وتحول النسيان إلى طريقة لتحصيل السعادة في إطار المجهود السياسي نحو تحقيق العفو العام والمصالحة

مع الماضي الثقافي. هكذا تمثل الهوية السردية هذا التفاعل العجيب والثقاف الخلاق بين الذاكرة الجماعية ومجموعة الذكريات التي تنتمي إلى هوية شخصية عاشت حياة خاصة مليئة بالتقلبات والأحداث الفريدة. كما أن هذه الذاكرة الجماعية تضمن الاستمرار الزمني للأفراد وتسمح لهم بالتواصل وتبادل الرؤى والمشاعر والتطلعات والأمنيات والأحلام والتشارك في القيم عن طريق السرديات والقصص.

أضف إلى ذلك تجعل الذاكرة السردية إمكانية تعرف الذات على ذاتها أمرا ممكنا وتظهر الكيفية التي تعتني بها الذات بذاتها وتكتشف كينونتها وتثبت إنيتها بواسطة التعرف على الغيرية الكامنة فيها وتجعل من بنية الأفعال رهينة تحمل الفاعلين الحقيقيين مسؤولية أفعالهم واقتدارهم وعزوهم. على هذا النحو يمكن القول أن التاريخ البشري هو مسرح التجارب والأحداث وفضاء الممكنات والفرضيات والوعود لكونه يصنعها الناس وفق المراوحات التي تفصل وتصل بين الذكريات الشخصية الهشة والمحتملة والذاكرة الجماعية المترسبة والصلبة. على هذا الأساس يمكن الإقرار بخضوع الوعي البشري لنقد الحداثة وانخراطه في ألعاب الزمان وأهواء الأفراد ولأشكال التوسط بين الذات والغير وبين المواطنة والغرباء التي تتبلور في تقاسم الذاكرة عبر صور التكامل والتبادل بين هبة الحياة والخشية من الموت.

رأس الأمر أن ما يسود في فكرة الحداثة أو التحديث عند بول ريكور ليس التوافق مع أفكار الزمن بل هو عدم الرضا وعدم الاتفاق مع الزمان الحاضر. بناء على ذلك يرفض اللادرية المتشددة تجاه فكرة الحداثة ويعتبر مديح الحداثة هو التفكير الشمولي الميتا- تاريخي في التاريخ ويرى أن المعنى الحقيقي للحداثة الخاصة بنا هو الاعتراف بالوضع السجالي والمتصارع حوله واللأنهائي لكل النقاشات الدائرة في الفضاء العمومي ويقدم التراجيدي على السردية ويتخلى عن معرفة تاريخية بالذات تريد أن تكون كلية ويقوم بتفكيك ادعاء التفكير بشكل مطلق في التاريخ ويستبعد عملية تنصيب الحاضر التاريخي حكما مطلقا على كل الأزمنة ويكتفي بالتفكير في الحدود، ويُعرّف الحداثة بكونها مفهوم بعيد عن كل رغبة في انتهاك الحدود من طرف الفاعلين الحقيقيين للتاريخ الحالي والاعتراف بالوجود المدين تجاه التقاليد. ويبرهن على ذلك بقول برنارد بوشارت: "نحن أقزام يقفون على أكتاف عمالقة. ما الأعظم والأشرف صلابة عملاق أو حداقة نظر القزم؟". في هذا الصدد يضع ريكور جملة من الملاحظات النقدية حول مفهوم الحداثة :

- تبدو التكرارات المتتالية لعبارة حادثة، والحال أن العديد من العصور وصفت نفسها كحديثة.
- تولد فكرة الحادثة حينما تعمل فكرة زماننا من تلقاء نفسها في اختلافها مع الماضي.
- تظهر الحادثة حينما تحدث تمايزات على أساس القبل والبعد والماضي مع الحاضر.
- أول استعمال كلمة حديث كان محايدا وبذلك اقترن بكلمة جديد ومواجهة قدم التقليد.
- استعمل الوعي الغربي كلمة حادثة لينصب نفسه مرشدا للإنسانية نحو التقدم والتطور.
- فكرة الحادثة هي رؤية الحاضر بأعين المستقبل وعدم الاتفاق وعدم الرضا بالموجود.
- التمييز بين الحادثة الغربية والحداثات المغايرة واقتراب الحادثة الغربية من درجة تعريف نفسها بالانقلاب على ذاتها ومراجعة أسسها وتعويض افتقاد الأصالة بالتجدر في التجربة الحية.
- التركيز في الحادثة على المحدث وتدوين تاريخ تمثلات الذات ومراقبة الحاضر.
- يتضمن خطاب الحادثة التفكير النضالي والسعي إلى التغيير بدل الاستعادة والاسترجاع.
- لم تعد الحادثة أمرا محايدا بالنسبة إلى ما ينظمه وأصبحت تعني تسلسل جملة من الأفكار والوقائع والأحداث لا تتطابق مع التقويم التاريخي بل مع دلالتها في الزمن الفلسفي.
- إن الحادثة هي في نفس الوقت مقيمة لذاتها وذاتية المرجع والإحالة وتقتضي حصول وعي تاريخي للذات والقيام بحركة استخلاص من الحاضر لجملة من القيم الحيوية والجديرة بأن تبقى.
- الحادثة ليست الحدث المفارق الذي ينجز قطيعة وتقدما بل هي الحديث عن التنوير وتاريخ التمثلات والفهم الذاتي لاختلافنا نحن في هذا العصر عن غيرنا الذين سبقونا.

- يغير خطاب الحداثة نظامه في كل مرة يحس فيها بالوقوع في التكرار ولكي يتفادى تقليد القديم وسعيًا منه إلى إنتاج التمييز الذي يكرس الاختلاف والفرادة عن بقية العصور.

- الحداثة تمتلك محاسن ومساوئ وتتوقف على تقاطع الكوني والتاريخي ورفع اللامقول واقتدار الحاضر أن يتعرف على نفسه في قلب التغيرات ويفكر في ذاته بشكل مختلف.

- تعبير ما بعد الحداثة هو مرادف لتعبير الحداثة ويدل سلبًا على إنكار كل مديح للمحدث ونتاج عن تغيير المعرفة لوضعها في الوقت الذي تتغير فيه منزلة الثقافة في المجتمع وقد ارتبطت بخطاب نزع الشرعنة عن خطابات الوضعية والتأويلية والدهرنة اللاهوتية.

- التسمية الذاتية لعصرنا بأنه ما بعد حديث تتضمن شحنة سجالية وجرعة تنويرية ولكنها تعاني من تناقض إنشائي وغياب فكرة المعيار وصعوبة الوصول إلى إجماع ووافق.

- الحداثة مشروع غير قابل للاكتمال تتطلب التوصل من خلف خطابات الشرعنة إلى القوة البلاغية الموظفة في القص بعد فقدان السرد كل صدقية وتوصيفه الشمولي للعصر.

- الأمل الوحيد عند بول ريكور من مشروع الحداثة: "ممارسة العدالة تصاحبها أشكال محلية لاتفاقات مصنوعة من النزاعات التي لا يمكن التغلب عليها تساندها قصص صغيرة".

غاية المراد أن التساؤلات الفلسفية الشائكة حول العنف والازدراء والالإنساني واللامنقال والإرهاب والحياة الجيدة ومعنى الكينونة لا يتم تحسسها وإثارتها وطرحها بدقة إلا بواسطة مناهج متعددة يشترك فيها البحث التاريخي والمقاربة السوسيولوجية مع التحليل النفسي. لقد حاول ريكور جاهدا أن يضع الأسس الصلبة لفلسفة الذاكرة وحاول الحصول على آخر الاكتشافات العلمية في عصره وأصر على إعطاء البعد الأنطولوجي الإيتيقي الحيز الأكبر في مشروعه ولكنه اصطدم بطول المسار الذي قطعه ولذلك ترك العديد من الإشكالية مطروحة وكشف عن العديد من الأجوبة غير المكتملة وقرب الفنونولوجيا والإيتيقا من فلسفة الحياة.

المخرج المقترح من قبل ريكور هو نحت ذاكرة متوازنة وعادلة تنعم بالهدوء وقادرة على النسيان في علاقة بالعذاب والألم والحزن الذي تسبب فيه التاريخ وعلى التسامح والصفح في علاقة بالإهانة والشقاء والازدراء والشر الذي تعرضت له الذات تحت تأثير السلطة والرغبة.

لكن ألا يعتبر مثل هذا المخرج الريكوري معالجة أخلاقية لتاريخ عنيف وجراح عميقة ناتجة عن شر أصلي متجذر في الطبيعة البشرية اللأمعصومة والمصابة بالعطوبية والهشاشة؟ ومن يضمن لنا ألا تتعرض هذه الذاكرة مجددا إلى التمويه والتلاعب من طرف السلطة؟ وكيف تتجسد مساهمة الذاكرة الجماعية في التكوين السردي للهوية؟ وأليس المطلوب هو التحرر من هذه القيم المطلقة والقناعات المترسخة والروايات الكبرى التي يفرضها التاريخ الرسمي؟ وألم يقع ريكور في تبرير المحو المتعمد للأسباب الحقيقية والصمت المبرمج إزاء الأحداث السياسية الصاخبة؟ وإلى أي مدى كان منصفا نحو ضحايا التاريخ وراذعا لأنانية الرأسماليين وشمولية الايديولوجيين وتعصب المتدينين؟

في الواقع يستحق بول ريكور أن يكون مفكرا به بصورة عميقة ومنتزعة ويليق بأعماله أن تكون مقروءة بأكثر عمق ومؤولة بصورة متنوعة وثرية. وهذا الاهتمام يكون تارة بالاختناغ والتوافق معه وطورا بتبني الرأي المعاكس والسير ضده بإبراز التنافر مع وجهة نظره والتناظر مع نصوصه.

جملة القول أنه إذا ما أردنا التفكير بشكل أفضل بما قد بقي غير مفكر فيه عند بول ريكور فإنه حري بنا أن نعرج على عزمه ذات يوم كتابة جزء ثالث من مشروع "فلسفة الإرادة" كان يود تخصيصه للحديث عن مبدأ الخيرية والطيبة والبراءة والشاعرية ويبين فيه طرق الانتصار على الشر والعنف والكذب والتناهي وسبل مواجهة استعصاءات الإثم والذنب ومآسي التاريخ. لكن أليس كل ما كتبه هو صفحة جديدة غير مصرح بها لهذا الكتاب الذي لم يكتب؟

\* كاتب فلسفي

.....  
الاحالات والهوامش:

[1] ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زيناتى، الدار الكتاب الجديد المتحدة،

بيروت، طبعة أولى، 2009، ص.460،

[2] ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، مذكور في الهامش عدد 21. ص.458،

[3] ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، مصدر مذكور، ص.468،

المصادر

ريكور (بول)، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زيناتي، الدار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،

طبعة أولى، 2009

Ricœur (Paul), Mémoire, histoire et oubli, édition seuil, Paris, 2000

.....

\* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية